مقالات

الذات والوجود: دراسة مقارنة في نصوص ريتا الحكيم وهند زيتوني (مقاربة لغوية، فكرية، ونفسية)

الأستاذ

رياض عبد الواحد السعد

المقدمة

يمثل التحول نحو قصيدة النثر في الشعر العربي المعاصر مساحة حرّة تتقاطع فيها الذات مع الوجود، والعاطفة مع الفكر، واللغة مع التجربة. ومن بين الأصوات النسوية التي عبّرت بعمق عن هذا التحول، تبرز تجربتا ريتا الحكيم وهند زيتوني بوصفهما صوتين مختلفين في الشكل والرؤية، لكنهما يلتقيان في البحث عن معنى الذات في عالمٍ يتآكل بالغياب، واللايقين، والاختناق الاجتماعي.

تسعى هذه القراءة إلى تقديم مقارنة بين نصّ «هذا ما يحدث في يوم شوق عابر» لريتا الحكيم، ونصّ «لستُ مثل مارسيل بروست» لهند زيتوني، عبر أربعة محاور رئيسة:

الموضوع والرؤية (الغياب والوجود).

اللغة والأسلوب والبنية الإيقاعية.

الرمزية والدلالة الفكرية.

البعد النفسي في تمثيل الذات والعالم.

ترتكز هذه القراءة على منهجٍ تحليلي-تأويلي يستثمر أدوات النقد البنيوي والسيميائي، مع استحضار المنظور النفسي بوصفه مفتاحًا لفهم البنية العميقة للذات الأنثوية في النصين.

أولاً: الموضوع والرؤية ـــ بين الغياب العاطفي والغياب الوجودي

١. الغياب والحنين عند ريتا الحكيم

في قصيدتها «هذا ما يحدث في يوم شوق عابر»، تقدّم ريتا الحكيم الغياب لا بوصفه فقدًا فيزيائيًا، بل كـ حالة وعيٍ وجوديٍّ بالانفصال. تقول:

"أقفزُ على ساقِ الألمِ، وعن قربٍ أراقبُ الغيابَ. وزوجتَهُ.. وأبناءَهُ".

الغياب هنا كائنٌ له امتدادٌ في الواقع، يتكاثر داخل الذات حتى يتحوّل إلى بنية ذهنية موازية للحياة نفسها.

تعيش الشاعرة صراعًا بين الحنين إلى الامتلاء وإدراك استحالة العودة، وهو ما يجعل من الغياب مساحة للتأمل في الهوية والأنوثة والعزلة.

يتخذ الحب في نصها وظيفة تعويضية — فهو ليس مجرّد رغبة، بل آلية دفاع نفسي (وفقًا لمدرسة التحليل النفسي) تُرمم بها الذات شروخها الداخلية عبر الخيال واللغة.

٢. الغياب والوعي الاجتماعي عند هند زيتوني

أما هند زيتوني، في قصيدتها «لست مثل مارسيل بروست»، فتمنح الغياب معنى فكريًا واجتماعيًا. تقول:

"العظماءُ لم يسكنوا القصور لأن سقوفَها مبنيَّةٌ من عظام الفقراء".

هنا يتحول الغياب إلى غيابٍ جماعيٍّ للعدالة والكرامة، وإلى رفضٍ للواقع المادي الزائف. هند لا تبحث عن حبيبٍ غائب، بل عن عالمٍ مفقود المعنى.

من خلال المفارقات الساخرة، تفضح الشاعرة التفاوت الطبقي، وتنتقد القداسة الكاذبة، وتحول الشعر إلى موقفٍ أخلاقيٍّ ضد اللامبالاة.

المقارنة:

عند ريتا الحكيم: الغياب ذاتيٌّ، حميميٌّ، وجداني.

عند هند زيتوني: الغياب كونيٌّ، اجتماعيٌّ، فكري.

الذات الأولى تبحث عن دفء العاطفة، والثانية تبحث عن عدالة العالم.

ثانياً: اللغة والأسلوب ـــ من الحسّية إلى السخرية الفكرية

١. اللغة الحسية عند ريتا الحكيم

تتوسل ريتا الحكيم لغة مشبعة بالعاطفة والإيحاء الحسي:

"لرائحتكَ مذاقُ النعناعِ المحلّي. آه كم أنا ضعيفةٌ حدَّ الهشاشةِ تجاهَها"!

اللغة هنا تتحول إلى جسدٍ لغويٍّ نابض؛ فالرائحة، اللون، المذاق، والملمس عناصر تشكّل تجربة حسية كاملة.

وهي بذلك تقترب من أسلوب تيار الوعي إذ تنساب اللغة بتلقائية لتعبّر عن توتر الشعور، فيتماهى النص مع إيقاع النفس الداخلي.

٢. اللغة الساخرة والفكرية عند هند زيتوني

على النقيض، تصوغ هند زيتوني لغتها بنبرة عقلانية ساخر:

"الشعراءُ يتكاثرونَ في الصيف بسببِ الحرارة ويتقلَّصون في الشتاءِ لندرةِ التدفئة".

الجملة القصيرة، والتقطيع السردي، والمفارقة الساخرة، جميعها أدوات لغوية تبني جمالية التهكم بوصفها موقفًا من العالم.

اللغة هنا فكرية، متوترة، ومشحونة بطاقة النقد، تمثل وعيًا جمعيًا مأزوماً.

إنها كتابة تُحيل إلى ما يسميه باختين "تعدّد الأصوات"، إذ يلتقي في النص صوت الشاعرة، وصوت المجتمع، وصوت السخرية الذي يكشف عن مفارقة الوجود.

المقارنة:

ريتا: لغة وجدانية حسية متدفقة.

هند: لغة فكرية مفككة ساخرة.

الأولى تنبع من العاطفة، والثانية من الوعي النقدي.

ثالثاً: البنية الإيقاعية ـــ من الموسيقى الداخلية إلى النبض الفكري

١. الإيقاع الداخلي عند ريتا

"سأمدُّ لكَ جديلةً من لونينِ، وقبلةً خضراءَ، ربَّما سأجعلها ثلاثًا"...

الإيقاع هنا ذاتي، نابع من التكرار والموازنة، ومن حركة اللغة التي تماثل تنفس الشاعرة.

إنه إيقاع وجداني أكثر منه صوتي، يعكس نبض الشوق والحنين في تتابع الجمل وانسيابها.

يمكن وصفه بأنه إيقاع نفسي، يعيد التوازن بين الألم والبوح.

٢. الإيقاع الفكاهي المتقطع عند هند

"كان عليَّ أن أعلّقَ قصائدي كقرطٍ في أذني كي لا يسرقَها أحد".

الإيقاع هنا سرديٌّ، متقطع، متوتر، ينتمي إلى ما يمكن تسميته بـ إيقاع المفارقة.

كل جملة قصيرة تمثل ومضة وعي، ضربة فكرية، أو صدمة تهكمية.

وهكذا يعبّر الإيقاع عن تمزق الذات المثقفة في مجتمعٍ ساخرٍ من معناه.

المقارنة:

عند ريتا: الإيقاع انسياب وجداني.

عند هند: الإيقاع تقطيع فكري ساخر.

الأول يعبّر عن تماسك العاطفة، والثاني عن تفكك العالم.

رابعاً: الرمزية والدلالة الفكرية

١. الرمزية العاطفية عند ريتا الحكيم

"حين حاولتُ عبورَ الحدودِ، احتجزوني في قارورةِ عطركَ ورمَوا بي في البحرِ".

العطر رمز للذاكرة الحسية، والبحر رمز للتحرر واللانهاية، والحدود رمز القيد.

إنها رموز نرجسية-أنثوية تعبّر عن الذات العالقة بين الرغبة والحرمان، بين التوق والتحرر.

توظف الشاعرة رموزها لتعيد بناء الذات من رماد الفقد، في طقسٍ لغويٍّ يوازي فعل التطهير النفسي.

٢. الرمزية الفكرية عند هند زيتوني

"والأشجارُ والشمسُ والنُّجوم يتعطَّرُ بدموعِ القدِّيسينَ والملحدين".

رمزية هند كونية فلسفية؛ تجمع بين المقدس والمدنس، لتؤكد أن الإنسان مركز المعنى لا الإيديولوجيا.

الرموز هنا لا تحيل إلى الحنين، بل إلى الوعي بالعبث والعدالة والحرية.

المقارنة:

رموز ريتا وجدانية حسية.

رموز هند فكرية اجتماعية فلسفية.

تعمل الأولى على مداواة الذات، والثانية على مساءلة العالم.

خامساً: البعد النفسي في النصين

١. البعد النفسي عند ريتا الحكيم

النصّ عند ريتا فضاءٌ نفسيٌّ مغلق على الذات.

تُظهر الشاعرة أعراضًا نفسية يمكن قراءتها من خلال مفاهيم التحليل النفسي (فرويد، يونغ):

النوستالجيا (الحنين للمفقود): تمثله صورة "الغابة التي هجرتها الأم"، وهي رمز للأصل والأمان.

الإسقاط: تُسقط الشاعرة أوجاعها على شخصيات الغياب (زوجته، أبناؤه) في محاولة لتبرير الألم.

التحويل: يتحول الحبيب إلى موضوع نفسي يحمل دلالة الأب، والمأوى، والمعنى.

إذن فالشعر هنا أداة تعويضية للذات الممزقة، تحوّل الألم إلى جمال، والغياب إلى صوتٍ ناطق.

٢. البعد النفسي عند هند زيتوني

أما عند هند زيتوني، فالنصّ ينطوي على ما يمكن تسميته بـ الوعي القَلِق، الناتج عن صراع بين الذات والمجتمع.

تُخفي السخرية عندها قلقًا وجوديًا عميقًا، فالنكتة وسيلة للدفاع النفسي ضد عبثية العالم.

السخرية، وفق المنظور الفرويدي، آلية دفاعية ضد الألم، تُحوِّل الإحباط إلى طاقة لغوية ساخرة.

وهكذا، تكشف قصيدتها عن اللاجدوى والتمرد في آنٍ واحد، فهي تقاوم الهزيمة بالضحك.

المقارنة النفسية:

ريتا الحكيم: الانكفاء على الذات، الغوص في الجرح، تطهير بالعاطفة.

هند زيتوني: مواجهة العالم، تسامي بالوعي والسخرية، تطهير بالعقل.

الخاتمة

تتجلى في نصوص ريتا الحكيم وهند زيتوني ملامح التحول في الشعر العربي المعاصر من الغنائية إلى التفكير الشعري، ومن التعبير العفوي إلى الوعي الوجودي والنفسي.

الذات عند ريتا تنزف حبًا وحنينًا في مواجهة الغياب، بينما الذات عند هند تفكّر وتتمرد في مواجهة اللامعنى الاجتماعي.

وهكذا، تلتقي الشاعرتان في إعادة صياغة الوعي الأنثوي العربي الحديث — لا بوصفه شكلاً من العاطفة فقط، بل كفعل مقاومة جمالي ضد القمع الخارجي أو الداخلي، ضد الفقد أو الزيف، فيتحوّل الشعر إلى مساحة للشفاء وللتفكير معًا.

إنّ هذه الثنائية —بين الداخل والخارج، بين العاطفة والعقل، بين الحنين والسخرية— تُظهر المرأة الشاعرة كذاتٍ واعيةٍ بوجودها، قادرة على مساءلة العالم بلغتها الخاصة، لغةٍ تكتب الوجدان بقدر ما تكتب الوعي.

النص الأصلي

هذا ما يحدثُ في يومِ شوقٍ عابرٍ

للشاعرة : ريتا الحكيم

هذه المرَّة لن أحدِّثَكَ عَنِ الغيابِ

بل عن زوجتهِ الحسناءَ حين تدخلُ مطبخي،

ترشُّ الملحَ على قهوتي

وتغرفُ من آنيتي ما طاب لها

لتُطعمَ أبناءً من صلبهِ يلعبونَ الغميضةَ في سريري

ويتسلَّلونَ إلى حُضني ليلًا من نوافذِ الأرقِ

يقيمونَ مآدبَهم على شرفِ حياةٍ

خُيِّلَ إليَّ أنَّني كنتُ فيها شجرةً هجرتْها الغابةُ الأم.

أغوصُ في صمتيَ الصَّاخبِ..

أقفزُ على ساقِ الألمِ، وعن قربٍ

أراقبُ الغيابَ.. وزوجتَهُ.. وأبناءَهُ

وهم يُشيعونَ الفوضى في تضاريسِ ذاكرَتي

فأغرزُ صرختيَ المخنوقةَ في كلِّ التَّفاصيلِ التي تذكِّرُني

أنَّني ما زلتُ خارجَ حدودِ تلك الغابة التي أزهرتُ فيها،

ولم أورق

فاقترفتُ الحبَّ على مشارفِها علانيةً

لأرتقَ به ثقوبيَ المترهِّلةَ

عليكَ أن تتقبَّلَ كوني امرأة تستندُ

على جدارٍ اللامبالاة

لأنَّ الحياةَ هُنا ليست كما تشتهيها

إنَّها تحتضرُ بين ذراعيّ نصٍّ باردٍ

يشهدُ على أنَّ عناقاتِنا مسرحيةٌ من فصلٍ واحدٍ

عليكَ أن تُقلعَ عن نظمِ قصائدَ يتيمةٍ لا يقرأها إلَّاك

وأن تُفرجَ عَنِ الوقتِ الأسيرِ

في تصدُّعاتِ الكلامِ وشقوقِهِ.

لرائحتكَ مذاقُ النعناعِ المحلِّي.

آه كم أنا ضعيفةٌ حدَّ الهشاشةِ تجاهَها!

هل تذكرُ زجاجةَ العطرِ التي تركتَها في خزانتي؟

نثرتُها في الجو لتشملَ محيطَ قارَّةٍ بأكملِها،

هناك يلهجونَ باسمكَ،

ويسعَونَ لملءِ رئاتِهم بتلك الرَّائحةِ بعد أن هزَّت أركانَ الوطنِ.

حين حاولتُ عبورَ الحدودِ، احتجزوني في قارورةِ عطركَ ورمَوا بي في البحرِ؛ فهاجَ وماجَ احتفاءً بي وبها.

ألم ترَ ألواني في قوسِ قزح؟

كنتُ على بعد لونينِ أو أكثر منكَ.

سأمدُّ لكَ جديلةً من لونينِ، وقبلةً خضراءَ،

ربَّما سأجعلها ثلاثًا، واحدة على جبينكَ،

والأخرى على كتفكَ،

أما الأخيرة فستكونُ على خطِّ الشَّغفِ الفاصلِ بيننا

تمسَّكِ الآن جيدًا.. واحد، اثنان، ثلاثة،

ها نحن معًا من جديد،

تجمعُنا ألوانُ الطَّيفِ في يومِ شوقٍ عابرٍ.

النص الأصلي

الشاعرة: هند زيتوني

لستُ مثلَ مارسيل بروست الذي

نامَ كثيراً ثم قال:

(أن يحلمَ المرءُ حياتَهُ خيرٌ من أن يحياها)

أخافُ أن أصحوَ من الحلمِ

فأغرقُ في كوابيسِ الأيام

سأجرّبُ أن أحتسيَ

كأساً من الموسيقا

وأصبحُ موسيقياً بسيطاً

يعزفُ الميجانا على الرَّبابة

ليلتفَّ حوليَ البسطاءُ

أكونُ سيّدَ المتعبينَ في الأرض

وأنزلَ على درجِ الغناءِ نغمةً .. نغمة

كان عليَّ أن أعلّقَ قصائدي

كقرطٍ في أذني

كي لا يسرقَها أحد

الشُّعراءُ يتكاثرونَ

في الصيف بسببِ الحرارة

ويتقلَّصون في الشتاءِ

لندرةِ التَّدفئة

الشَّاعرُ الذي قتلَ أمَّهُ البارحة

كانت تدسُّ له السُّمَّ

في طبق الشِّعرِ الكبير

لكيلا يتذوَّقَهُ أحد

والدي كان شيوعيَّاً

لا يريدُني أن أبنيَ بيتاً

من الشِّعرِ العظيم

لأن ذلك من الإسرافِ و التَّرف

كان يصلِّي باتِّجاهِ قِبلةِ كارل ماركس

ويسكنُ في برميلٍ مثلَ ديوجين

العظماءُ لم يسكنوا القصور

لأن سقوفَها مبنيَّةٌ

من عظام الفقراء

مرصَّعةٌ بلآلئ عرقِهم و دمِهم

الرجلُ الحقيقيُّ يرتدي كلماتِهِ المأثورةَ

وثوبَه المرقَّعَ بأمنياتِ

الأشجارِ والشَّمسِ والنُّجوم

يتعطَّرُ بدموعِ القدِّيسينَ والملحدين

يتسوَّقُ مع فقراءِ المدينةِ

الذين آمنوا بالوطن

بالجعَّةِ الرخيصة والخبزِ الرَّديء